OPEN ACCESS
Received: 17 -05 -2025
Accepted: 06- 07-2025

الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

The Interplay of the Cultural and the Visual in Travel Literature: A Study of the Formation of Epistemic Identity in *Al-Maqdisi's Trip: Aḥsan al-Taqāsīm fī Maʿrifat al-Aqālīm*

Dr. Jabr Bin Duwaihi Al-Fahham*
J.alfaham@mu.edu.sa

Abstract

This paper investigates how cultural frameworks intersect with visual observation in shaping epistemic identity within travel literature, focusing on *Al-Maqdisi's Trip: Aḥsan al-Taqāsīm fī Maʿrifat al-Aqālīm*. By analyzing materials that extend beyond direct witnessing, the study identifies the ways in which unseen cultural sources—both oral and written—inform the travel narrative and influence its epistemological orientation. Although Al-Maqdisi repeatedly affirmed his intent to record only what he had directly observed, his broader cultural knowledge inevitably filtered into the text through transmitted oral accounts, dialogues, reports, and written works he consulted, sometimes cited and other times not. The findings highlight how this interplay between the cultural and the visual not only shaped the narrative's descriptive strategies but also redefined its central concern with vision and observation, thereby revealing the subtle yet powerful role of cultural mediation in constructing knowledge within the travel text.

Keywords: Travel Literature, Travel, Cultural Sources, Travel Narrative.

* Assistant Professor of Literature and Criticism, Department of Arabic Language, College of Education, Majmaah University, Saudi Arabia.

Cite this article as: Al-Fahham, J. D. (2025). The Interplay of the Cultural and the Visual in Travel Literature: A Study of the Formation of Epistemic Identity in *Al-Maqdisi's Trip: Aḥsan al-Taqāsīm fī Maʿrifat al-Aqālīm*, *Arts for Linguistic & Literary Studies*, *7*(3): 186 -201https://doi.org/10.53286/arts.v7i3.2764

© This material is published under the license of Attribution 4.0 International (CC BY 4.0), which allows the user to copy and redistribute the material in any medium or format. It also allows adapting, transforming or adding to the material for any purpose, even commercially, as long as such modifications are highlighted and the material is credited to its author.

الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

OPEN ACCESS
تاريخ الاستلام: 2025/05/17م
تاريخ القبول: 2025/07/06م

تداخل الثقافي بالمرئي في النص الرحلي: دراسة في تشكل الهوية المعرفية في (رحلة المقدسي- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)

د. جبر بن ضويحي الفحام*
J.alfaham@mu.edu.sa

ملخص:

يتناول البحث مدى تداخل الثقافي بالمرئي والمشاهد، وأثر ذلك في تشكيل الهوية المعرفية للنص الرحلي، من خلال أنموذج مختار، هو كتاب (رحلة المقدسي) المسمى (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، وقد استهدف البحث رصد ما يخرج عن المرئي من معلومات في المدونة المعنيّة وتحليلها ومساءلتها، بناء على موضوع جنسها الأدبي (أدب الرحلات)، وبناء على المنهج الذي أعلنه المقدسي فيها، وذلك عبر مقدمة وثلاثة مباحث ونتائج، كشفت عن مصادر الثقافي غير المشاهَد عند المقدسي، وعن مجالاته المعرفية، ثم عن موقف المؤلف من الثقافي. من خلال وصف هذا الثقافي وتحليله. وقد أبان البحث قوة أثر الثقافي عند المؤلف على النص الرحلي، وتأثيره على موضوعه الأساس وهو المشاهَدة والرؤية؛ مما أدى إلى تداخل الثقافي بالمرئي. وتوصل البحث إلى أن المؤلف كان يعي أثر تدخّل الثقافي بالمرئي على محتوى النص؛ ولذلك وضّح منهجه في التعامل مع هذه الحالة بأنه لن يدوّن إلا ما شاهده وأدركه غاية الإدراك. ومع ذلك تسللت ثقافته العامة إلى النص عبر مصدرين من مصادر الثقافة: الأول المصدر المسموع، ومنه نَقَل محتوى تَلقّاه بالسماع من مصادر كالإجابات الشفوية، وما يسمعه من أخبار، وما يمر به من حوارات، وما يرويه من أحاديث السنة النبوية، وغير ذلك. والثاني المصدر المكتوب، وقد أبان أنه نقل عن كتب اطلع عليها، ونجده أحيانًا يذكر اسم الكتاب ومؤلفه أو أحدهما، كما وجد عنده نقل بلا عزو لمصدر.

الكلمات المفتاحية: أدب الرحلات، الرحلة، مصادر الثقافة، النص الرحلي.

* أستاذ الأدب والنقد المساعد، قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة المجمعة، المملكة العربية السعودية.

للاقتباس: الفحام، ج. ض. (2025). تداخل الثقافي بالمرئي في النص الرحلي: دراسة في تشكل الهوية المعرفية في (رحلة المقدسي- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، *الآداب للدراسات اللغوية والأدبية*، *7*(3): 186- 201 https://doi.org/10.53286/arts.v7i3.2764

© نُشر هذا البحث وفقًا لشروط الرخصة Attribution 4.0 International (CC BY 4.0)، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو الإضافة إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أُجريت عليه.

المقدمة:

أدب الرحلة جنس من أجناس الأدب القديمة الحديثة في آن واحد (بلعربي، ومنقور، 2023، ص 61، 62). وموضوعه الأساس ما يراه الرحالة ويشاهده، لكن ثقافة الرحالة قد تستيقظ وقت الكتابة، فيتداخل الثقافي مع المرئي ليشكّل هوية مستقلة للنص الرحلي. وقد جاء هذا البحث لمقاربة هذه الممارسة في نموذج من أرقى نماذج أدب الرحلة العربية القديمة، وهو كتاب (رحلة المقدسي) المسمى (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) (المقدسي، 2003).

ومع توافر عدد من الكتابات والدراسات السابقة عن أدب الرحلات، وعن كتاب المقدسي إلا أني لم أجد –فيما اطلعت عليه- بحثًا أو دراسة نحت هذا المنحى أو تناولت هذا الجانب في أدب الرحلة. وقد تمظهرت إشكالية البحث في التساؤل عن مدى تأثير الثقافة العامة للرحّالة على كتابة مشاهداته، وتمازجهما معًا لتشكيل هوية النص، عبر أسئلة ثلاثة:

ما مصادر هذه المعلومات؟ وما علاقتها بمادة الرحلة؟ وما تأثيرها على قيمة الكتاب؟

ويهدف البحث –في إجابته على هذا التساؤل- إلى رصد ما يخرج عن المشاهدة من معلومات في المدونة المعنيّة وتحليلها ومساءلتها، بناء على موضوع جنسها الأدبي، وبناء على المنهج الذي أعلنه المقدسي فيها. وتبرز أهمية البحث في تسليط الضوء على ما يتمازج مع المرئيات في النص الرحلي من ثقافي يؤثر على هويته بشكل أو بآخر.

ولتحقيق ذلك سلك الباحث منهج الوصف والتحليل لمقاربة الثقافي وتجاذباته مع المرئي لرسم هوية النص وتشكل أبعاده، وقد استدعى المنهج تقسيم البحث إلى تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة. فالمبحث الأول تحدث عن مصادر الثقافي غير المشاهد عند المقدسي، وفي الثاني بيان لمجالاته المعرفية، وفي الثالث حديث عن موقف المؤلف من الثقافي.

التمهيد:

الرحلة في مفهومها الأساس هي انتقال الإنسان فردًا أو جماعة من موطنه إلى مكان آخر لهدف معين. فهو بذلك يكسر حاجز المكان ويخترق حدود التجمّعات؛ وذلك لتحقيق عدد من الأهداف، منها: الدينية والاقتصادية والعلمية والإدارية والشخصية (الشامي، 1983، ص 13). وقد كان الرحالة يقيّدون كل ما تقع عليه أبصارهم الثاقبة في مختلف نواحي الحياة، ويذيعونه في الناس؛ فأثمرت هذه السلوكيات نتاجًا سمينًا ثمينًا يسمى أدب الرحلات.

ويقوم هذا المجال من المعرفة –في الأصل- على المشاهدة والمعاينة والملاحظة بوصفها شرطًا أساسًا فيه، وموضوعًا له(فهيم، 1989، ص 57-59). ولكن بعض الرحالين قد يورد بعضًا مما يمتلكه من مخزون ثقافي سابق أو موازٍ عن موضوع أو فكرة تعرِض له أو يعرض لها، وقد يوظفه في تحليل ما يراه أو في تفسيره وتعليله. وفي هذه الحالة قد يتقاطع أدب الرحلة مع مجال معرفي آخر، مثل معاجم البلدان، على أساس أن مؤلفي معاجم البلدان يتكئون –في الغالب- على ثقافتهم في وصف الأماكن لا على مشاهداتهم (أبوليل، 2011، ص 56-61)، أو غير ذلك من الأجناس أو المجالات.

وهنا تختلف زاوية النظر إلى هذه الظاهرة من التدوين بين القبول والتردد، فالقبول على أساس أن التقاطعات البينية واردة بين العلوم الإنسانية بقوة، أما التردد في القبول فعلى أساس أن قيمة أدب الرحلات وميزته كامنة في نقل الصورة المرئية والهيئة الحالية للمستَهدَف في اللحظة الزمنية القائمة (حليفي، 2002، ص 37-41؛ وفهيم، 1989، ص 57؛ المقدسي، 2003 ص68؛ والمدني، 2006، ص 16؛ وابن بطوطة، 1407، ص 32؛ والعبدري، 1968، ص 1).

ولذلك ظهرت بعض الانتقادات والشكوك حول بعض مرويات (شيخ الرحالين) ابن بطوطة في رحلته المشهورة لما فيها من مبالغات وغرائب رأى البعض أنها ليست من المشاهدات، وإنما هي من الثقافة، وإن لم يشر ابن بطوطة لذلك (معلوف، 1943، ص 118-119؛ وغريّب، 1991، ص 62-65).

وغني عن القول أن المعلومات التي يدونها الرحالة عن المكان الذي يزوره وقد استقاها من ثقافته لا تخلو من فوائد وإيجابيات، منها -على سبيل المثال-: إعطاء تصور أشمل للموضوع أو الفكرة، أو إثراء الكتاب بمعلومات متنوعة قد لا نجدها في مصادر أخرى، أو كسر الرتابة وطرد الملل عن القارئ... إلى غير ذلك من الفوائد.

ومن هنا جاء هذا البحث ليتناول أثر الثقافي عند المؤلف على المرئي في النص الرحلي، واتخذ كتاب رحلة المقدسي (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) لمحمد بن أحمد المقدسي أنموذجًا لإجراء البحث.

وجاء اختيار هذا الكتاب دون غيره لأن المؤلف كشف عن منهجه فيه بكل وضوح، في أكثر من موضع، وأكد أنه لن يدوّن فيه عن الأماكن إلا ما شاهده بعينه، أو سمعه من المتحدثين الثقات عنها، أو قرأه في كتاب حوْلها. يقول: "فأعلي قواعده وأرصف بنيانه ما شاهدته وعقلته، وعرفته وعلقته، وعليه رفعت البنيان وعملت الدعائم والأركان. ومن قواعده – أيضًا- وأركانه، وما استعنت به على تبيانه سؤال ذوي العقول من الناس، ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس، عن الكور والأعمال في الأطراف التي بعدْتُ عنها، ولم يتقدّر لي الوصول إليها، فما وقع عليه اتّفاقهم أثبته، وما اختلفوا فيه نبذته، وما لم يكن لي بدّ من الوصول إليه والوقوف عليه قصدته، وما لم يقرّ في قلبي ولم يقبله عقلي أسندته إلى الذي ذكره، أو قلت زعموا. وشحنته بفصول وجدتها في خزائن الملوك"(المقدسي، 2003، ص37، وص 256، 269، 382، 400).

وقال في موضع آخر ينتقد مؤلفات من سبقه من الرحالين ويبين منهجه: "غير أن أكثرها [كتب الرحالة السابقين] بل كلّها سماع لهم. ونحن فلم يبق إقليم إلا وقد دخلناه، وأقلّ سبب إلا وقد عرفناه، وما تركنا -مع ذلك- البحث والسؤال والنظر في الغيب، فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام: أحدها ما عاينّاه، والثاني ما سمعناه من الثقات، والثالث ما وجدناه في الكتب المصنّفة في هذا الباب وفي غيره"(المقدسي، 2003، ص 68، وص224).

فهو بهذا يجعل المشاهدة والملاحظة منطلَقه الذي يبني عليه كل ما يدونه في كتابه، وما لم يره بعينه وصَفَه عبر واسطة، وهي إما الرواة الثقات الذين يُفترض أنهم قد شاهدوا وعاينوا، أو الكتب التي يطلع عليها وينقل منها. وكأنه هنا يعلن تحييد التصورات السابقة والمعلومات المختزنة حول كل ما سيكتب عنه. فهل التزم المؤلف بموضوع أدب الرحلات عامة، ومنهجه السابق خاصة؟

وقد جاءت هذه المقاربة لمحاولة إبراز مدى تمازج الثقافي بالمرئي عند المؤلف ومن ثَم مدى التزام المؤلف بمنهجه، وأثر ذلك على تشكل هوية نصّه وبنيته.

المبحث الأول: مصادر الثقافي

يُلحظ عند المقدسي عند إيراد المعلومة الثقافية التصريح بالمصدر أحيانًا، وعدم التصريح به في أحيان كثيرة، كما أن المصادر التي يصرح بها تتنوع بين المسموع والمقروء، وأحيانًا يبدو أنه يعتمد على شهرة المعلومة لتغني عن ذكر المصدر. وقد تنوعت مصادره على النحو التالي:

أولا: المصدر المسموع

أعلن المقدسي عن هذا المصدر في كتابه أكثر من مرة، فقال: "ومن قواعده -أيضًا- وأركانه، وما استعنت به على تبيانه سؤال ذوي العقول من الناس، ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس، عن الكُوَر والأعمال في الأطراف التي بعدْتُ عنها، ولم يتقدّر لي الوصول إليها، فما وقع عليه اتّفاقهم أثبته، وما اختلفوا فيه نبذته... وما لم يقرّ في قلبي ولم يقبله عقلي أسندته إلى الذي ذكره، أو قلت زعموا"(المقدسي، 2003، ص 37).

وفي موضع آخر يكون أكثر تصريحًا بهذا المصدر فيقول: "فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام... والثاني ما سمعناه من الثقات"(المقدسي، 2003، ص 67)، وقال عن اليَمَن: "وغاب عني منه الكثير، غير أني أذكر ما سمعت فيه من أهل الخبرة"(المقدسي، 2003، ص 104). فهذه المعلومات التي يدونها المؤلف حول بعض الأماكن والأحداث يكون مصدره فيها السماع ممن قابلهم سواء في رحلته أو قَبْلها، ولذلك فإن هذه المعلومات تحل في المرتبة الثانية من حيث الموثوقية والدقة، بعد المُشاهَد والمرئي. والمقدسي يستعمل للإشارة إلى هذا المصدر عددًا من الصيغ والحالات، من أهمها:

السؤال:

يبادر المقدسي بالسؤال عن كل ما يشكل عليه، متى ما استشعر أن الجهة المسؤولة أهل للسؤال، وتكون الإجابة شفهية، مثل قوله: "سألتهم عنه"(المقدسي، 2003، ص 43)، وقوله عن بحارة أهل الأندلس: "وقد ركبت معهم المدّة الطويلة أبدًا أُسائلهم عنه وعن أسبابه"(المقدسي، 2003، ص 47)، وقوله: "سألت بعض المصريين"(المقدسي، 2003، ص 206) ، وقوله: "قلت: كيف؟"(المقدسي، 2003، ص 262، وص210، 224، 225، 311، 320، 353). وقد يكون الطلب بغير لفظ السؤال، مثل قوله للشيخ أبي علي بن حازم عن البحر: "فإن رأى أن يصفه لي صفة أعتمد عليها وأرجع من الشك إليها فعل" (المقدسي، 2003، ص 44).

السماع:

وهو أن يصرّح المؤلف بسماع الخبر من مصدر ما، سواء كان المصدر معروفًا معلومًا بعينه، كقوله: "وسمعت أبا عليّ الحسن بن أبي بكر البنّاء، يقول" (المقدسي، 2003، ص 71)، أو مصدرًا عامًا غير محدد، فيكون فيه المؤلف الطرفَ المتلقي دائمًا، ويعبّر عنه بألفاظ النكرة غالبًا، وهذا المصدر غير المحدد قد يكون مفردًا، مثل (شيخ) في قوله عن بحر الصين (العرب): "سمعت شيخًا يقول" (المقدسي، 2003، ص 45)، وقوله: "سمعت بعض المنجمين يقول... وسمعت غيره يقول..." (المقدسي، 2003، ص 80)، وقوله: "سمعت بعض مشايخ القيروان يقول..." (المقدسي، 2003، ص 93)، وقوله: "سمعت بعض صدور القراء بمكة يقول..." (المقدسي، 2003، ص 109)، وقد يكون متعددًا، مثل (جماعة) في قوله: "سمعت جماعة منهم يذْكرون أنه يضيق في حدود طنجة..." (المقدسي، 2003، ص 47)، ومثل (أهل الخبرة) في قوله عن اليمن: "غير أني أذكر ما سمعت فيه من أهل الخبرة..." (المقدسي، 2003، ص 104). بل قد يتجاهل المؤلف المصدر الذي سمع منه تجاهلًا تامًا، مثل قوله: "يقال لهم بنو سامة سمعت أنهم في أربعة آلاف قوس"(المقدسي، 2003، ص 104)، وقوله: "سمعت أن أبا موسى الأشعري..." (المقدسي، 2003، ص 326)، وقوله: "وسمعت أن أهل بصنا وبيروت..." (المقدسي، 2003، ص 337). وقد ورد التصريح بالسماع في أكثر من أربعين موضعًا من الكتاب.

الرواية:

ويُقصد بها ما ينقله المؤلف بسند متصل من الأحاديث النبوية أو الأخبار والآثار، وهي مما يُتلقى بالسماع؛ ولذلك نراه يستعمل فيها عبارات المحدِّثين، مثل: أخبرنا، وحدّثنا، وقد أكثر المصنف من هذه المرويات. فمن ذلك ما رواه عن النبي –صلى الله عليه وسلم- بقوله: "أخبرنا أبو عبدالله محمد بن أحمد بقصبة أرّجان، قال: حدثنا القاضي الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد، قال: حدثنا موسى بن الحسين، قال: حدثنا شيبان بن فروخ، قال: حدّثنا مسرور بن سفيان التميمي، عن الأوزاعي، عن عروة بن رويم، عن عليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:"(المقدسي، 2003، ص 119).

وقوله: "وأخبرنا أبو الحسن مطهر بن محمد الرامهرمزيّ، قال: حدثنا منصور بن محمد، قال: حدثنا إسحاق بن أحمد، قال: حدثنا محمد بن خالد بن إبراهيم، قال: حدثنا أبو عصمة، قال: حدثنا إسماعيل بن زياد، قال: حدثني مالك

القطّان، عن خليد، عن عمران المقبريّ، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (المقدسي، 2003، ص 348. وص 93، 96، 127، 143).

وأما ما نقله من الآثار فمنه ما رواه عن عبدالله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال فيه: "أخبرنا الفقيه أبو الطيّب عبد الله بن محمّد الجلال بالريّ، قال: حدّثنا أحمد بن محمّد بن يزيد الأستراباذيّ، قال: حدّثنا العبّاس بن محمّد، قال: حدّثنا أبو سلمة، قال: حدّثنا سعيد بن زيد، قال: حدّثنا ابن يسار عن عبدالله بن عمرو، قال..." (المقدسي، 2003، ص 47)، وقوله في خبر آخر عن نيل مصر: "وحدثنا أبو الحسن الخليل بن الحسن السرخسيّ بنيسابور، قال: حدثنا أبو الحسن علي بن محمّد القنطريّ، قال: حدثنا المأمون بن أحمد السلميّ، قال: حدثنا محمّد بن خلف، قال: أخبرنا أبو صالح كاتب الليث بن سعد عن الليث، قال..." (المقدسي، 2003، ص 51. وص 99، 107، 127، 131). وقد بلغ ما رواه من هذا النوع من السماع تسعة عشر نصا.

المحادثة والحوار:

ويُقصد بها أن يتلقّى المؤلف المعلومة من خلال الحوار والمناقشة مع فرد أو جماعة حول موضوع ما، وفيه يراوح المؤلف بين التلقي والإرسال، وهذه الحالة قد تتقارب مع الحالة الأولى في بعض الأحيان. ومن ذلك حواراته مع البحارة الأندلسيين حول بحر الروم، يقول: "وقد ركبت معهم المدة الطويلة أبدًا أسائلهم عنه وعن أسبابه، وأعرض عليهم ما سمعت فيه..." (المقدسي، 2003، ص 47)، وحواره مع قاضٍ في إقليم آقور حول تفضيل المقدسي قراءة ابن عامر على غيرها من القراءات القرآنية السبع (المقدسي، 2003، ص 148)، وكذلك حواره مع فقيه حول موقع بلدة (أشروسنة) (المقدسي، 2003، ص 256)، ومنه أيضًا المناظرة التي شهدها عند رئيس نيسابور حول جواز التيمم بالنورة (المقدسي، 2003، ص 185. وص206، 262، 317، 318). وقد تكررت مثل هذه الحوارات في أكثر من أربعة وعشرين موضعًا من الكتاب.

ما يوهم السماع:

والمقصود به ما تكون فيه عبارة المؤلف غير صريحة في أنه سمع المعلومة من المصدر، ولكن السياق يرجح ذلك، مثل عبارة (قالوا) في قوله: "في محرابه عظم، قالوا هو الذي قال للنبي -صلى الله عليه وسلم- لا تأكلي فأنا مسموم"(المقدسي، 2003، ص 101)، وقوله: "رباط فيه قبر صغير قالوا هو قبر رأس الحسين بن علي رضي الله عنه"(المقدسي، 2003، ص 289). وعبارة (يسمونه) في قوله عن بلد زبيد: "يسمونه بغداد اليمن"(المقدسي، 2003، ص 101)، وعبارة (يزعمون) في مثل قوله: "وثمَّ صنم يزعمون أن الشيطان كان يدخله..." (المقدسي، 2003، ص 204)، وعبارة (يُحكى) في مثل قوله: "يُحكى عن عضد الدولة..." (المقدسي، 2003، ص 351). والعبارات والأساليب في هذه الحالة متنوعة، وقد وردت في أكثر من ستة وأربعين موضعا.

ثانيا: المصدر المكتوب

صرح المقدسي بأن النقل من كتب السابقين سيكون أحد مصادره في كتابه، يقول: "وشحنته بفصول وجدتها في خزائن الملوك"(المقدسي، 2003، ص 37)، وعبارة (شحنته) تدل على الكثرة، وأن النقل لم يكن استثناءً أو طارئًا. ويؤكد ذلك في موضع آخر فيقول: "فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام:... والثالث ما وجدناه في الكتب المصنّفة في هذا الباب وفي غيره. وما بقيت خزانة ملك إلا وقد لزمتها، ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفحتها"(المقدسي، 2003، ص 68)، وفي هذا الموضع الأخير يبين المؤلف نوعية المعلومات التي ينقلها عن السابقين، ففي قوله "في هذا الباب" يعني أنه ينقل من كتب الرحلات السابقة، وقد عدّد ما اطلع عليه منها، ونقَدَها، وبيّن ما اختلف فيه كتابه عنها(المقدسي، 2003، ص 37-39)، مع أنه ذكر أن من منهجه ألا ينقل عن هذه المصنفات إلا عند الضرورة، يقول: "وقد اجتهدنا في أن لا نذكر شيئًا قد سطروه، ولا نشرح أمرًا قد أوردوه، إلا عند الضرورة؛ لئلا نبخس حقوقهم، ولا نسرق مصنفاتهم"(المقدسي، 2003، ص 39)، وقارئ كتابه يجد أن كثيرًا من المعلومات عن بعض الأماكن ترد بلا مرجع، خاصة في مقدمات الأقاليم التي تحدث عنها. فهل نقلها من كتب الرحالة السابقين

واحتسبها من الضرورات، أم أنها من مصادر أخرى؟ وعلى كل حال فهي تشكل نسبة لا بأس بها ويصدق عليها وصفه السابق (شحنته). وفي الفقرة التالية توضيح أكثر.

وأما منهجه في النقل عن السابقين فقد سلك فيه أكثر من طريقة، منها:

تسمية الكاتب وإغفال الكتاب:

نقل المقدسي عن عدد من كتب الرحلات السابقة، ولكنه لا يصرّح بأسمائها، بل يشير إليها بأسماء مؤلفيها فيقول (كتابه) (المقدسي، 2003، ص 38)، وفي حالة النقل يحيل على اسم المؤلف فيقول –على سبيل المثال- "وجعل أبو زيد البحار ثلاثة"(المقدسي، 2003، ص 48)، ويقول: "وذكر الجيهاني"(المقدسي، 2003، ص 51) دون أن يذكر أسماء كتبهم. وممن نقل عنهم: أبو زيد البلخي في تسعة مواضع، منها على سبيل المثال قوله: "وأما أبو زيد فجعل العَرْض من ملطية، مادًّا على الجزيرة والعراق وفارس وكرمان إلى أرض المنصورة، ولم يذكر المراحل إلا أنها تكون نحو أربعة أشهر غير عشرة أيام"(المقدسي، 2003، ص 85. وص 38، 48، 89.240، 261، 267). ونقل عن أبي عبدالله الجيهاني في ستة مواضع (المقدسي، 2003، ص 37، 48، 51، 90، 123، 242)، وعن ابن خرداذبه في خمسة مواضع (المقدسي، 2003، ص 80، 119، 187، 210، 305)، كما نقل عن ابن الفقيه الهمذاني في ثلاثة مواضع (المقدسي، 2003، ص 38، 47، 206). ولعله استغنى بأسماء مؤلّفي هذه الكتب عن أسمائها لاشتهارها وانتشارها.

كما نقل عن علماء آخرين يغلب على الظن أنه نقل من كتبهم، ولكنه لم يشِر إلى هذه الكتب بأية إشارة. ومن هؤلاء العلماء: عبدالرحمن ابن أخي الأصمعي، وأبو الجلد، وقطرب، ويحيى بن أكثم، والأصمعي (في موضعين)، وابن قتيبة، وأبو القاسم العكي، والبلاذري، وإبراهيم الفارسي (في عدة مواضع) (المقدسي، 2003، ص 61، 83، 125، 162).

تسمية الكاتب والكتاب:

وفي بعض الأحيان يعتمد المقدسي ذكر اسم المؤلف والكتاب معًا عند النقل، والمؤلفون الذين ذكرهم وذكر كتبهم هم: وهب وكتابه المبتدأ، والشمشاطي وكتابه في التاريخ، ومحمد بن الحسن وكتابه الأكراه، وقدامة بن جعفر وكتابه الخراج، ويلحق بذلك التوراة (المقدسي، 2003، ص 123، 128، 165، 206، 168).

إغفال اسم الكتاب والكاتب:

ومما وجد عند المقدسي النقلُ من كتب السابقين نصًا دون الإشارة إلى المصدر نهائيًا، مثل قوله: "فأما الأرض فإنها كالكرة موضوعة جوف الفلك، كالمُحَّة جوف البيضة، والنسيم حول الأرض، وهو جاذب لها من جميع جوانبها إلى الفَلَك، وبِنْية الخلق على الأرض أن النسيم جاذب لما في أيديهم من الخِفّة، والأرض جاذبة لما في أيديهم من الثقل؛ لأن الأرض بمنزلة الحجر الذي يجذب الحديد"(المقدسي، 2003، ص 80).

فهذا النص هو لابن خرداذبه، في كتابه المسالك والممالك، الذي يقول فيه: "صفة الأرض أنها مدوّرة كتدوير الكرة، موضوعة في جوف الفلك، كالمحّة في جوف البيضة، والنسيم حول الأرض، وهو جاذب لها من جميع جوانبها إلى الفلك، وبِنْية الخلق على الأرض أن النسيم جاذب لما في أبدانهم من الخفّة، والأرض جاذبة لما في أبدانهم من الثقل؛ لأن الأرض بمنزلة الحجر الذي يجتذب الحديد"(ابن خرداذبه، 1889، ص 4؛ البشاري، 1906، ص 58).

ومع أن المؤلف أحال على ابن خرداذبه في مواضع –كما سبق- فإنه لم يحل إليه هنا.

الإحالات الفضفاضة:

ومن منهج المقدسي في الإحالة عند النقل أن يستعمل عبارات عامة فضفاضة يحيل بها إلى المصدر المكتوب، مثل قوله: "وقرأت/ وجدت في بعض الكتب" (المقدسي، 2003، ص 48، 162، 184، 271، 293، 328)، وقوله: "وقرأت/ وجدت في كتاب بخزانة عضد الدولة"(المقدسي، 2003، ص 140، 162، 238، 260، 370)، وقوله: "ووجدت في كتاب بالبصرة"، ومثل قوله:

"وقرأت في أخبار المدينة"، وقوله: "ووجدت في بعض خزائن الخلفاء"، وقوله: "وقرأت في أخبار البصرة"، وقوله: "وقرأت في بعض الكتب بفارس"، وقوله عن أخذه من دفاتر البحّارة: "فعلِقْتُ من ذلك صدرًا صالحًا بعدما ميزت وتدبرت"(المقدسي، 2003، ص 53، 99، 128، 131، 385، 43)، ففي هذه النصوص يصرّح المؤلف بالأخذ عن كتب، ولكنه لا يسمّيها ولا يسمّي مؤلفيها .

ثالثا: المصدر غير المحدد (المُغفل)

يورد المقدسي كثيرًا من المعلومات التي لا يُتصور، ولا يمكن أن يكون عرفها بالمعاينة والمشاهدة، ولا بد أن يكون استقاها من ثقافته المسموعة أو المقروءة، ولكنه لا يشير إلى ذلك ولا يحدد المصدر الذي استقاها منه، وأكثر ما يكون ذلك في بداية حديثه عن أي إقليم، حيث يحشد كثيرًا من المعلومات التاريخية أو الاقتصادية أو الجغرافية أو غيرها عن الإقليم(المقدسي، 2003، ص 155، 189، 239، 349).

ومن تلك المعلومات التي يسوقها المؤلف بلا توضيح لمصدرها –على سبيل المثال-: تحديد موضع غرق فرعون، وتعيين الجبل الذي أنزل عليه آدم –عليه السلام- واسمه، ومكان صخرة موسى وأحداثه مع الخضر –عليهما السلام-، وخبر تفضيل عمر –رضي الله عنه- فتح الشام على فتح العراق، وتخطيط أبي العباس السفاح لبناء بغداد، وتسمية سامراء وبناء كعبة بجامعها، ومدح عمر –رضي الله عنه- لأهل إقليم المشرق، ودخول ذي القرنين كهف الظلمات ومحاولة مسلمة بن عبدالملك دخوله، وبناء المسجد الأقصى ثم إعادة بنائه بعد زلزلة، وشكوى أهل الفيوم إلى يوسف –عليه السلام- عدم وصول ماء النيل إليهم، وهروب إدريس الطالبي، وتكوين دولته في المغرب الأقصى، والحديث عن ملوك الدولة السامانية في خراسان (المقدسي، 2003، ص 44، 46، 46، 124، 126، 129، 239، 152، 168، 202، 226، 292).

ومثلها حديثه عن منابع أنهار دولة الإسلام، كدجلة والفرات والنيل وجيحون والشاش وغيرها (المقدسي، 2003، ص 51، 52). وقد يقدّم لبعض المعلومات بلفظ (يقال) أو (زعم بعض الناس) أو ما تصرّف عنهما، أو ما شابههما، كما قال عن قبرص: "يقال إنها اثنا عشر يومًا، كلها مدن عامرة..." (المقدسي، 2003، ص 184، 46، 85، 98، 325، 336)، ولكن المؤدى واحد وهو خفاء المصدر على المتلقي.

من هذا التتبع لمصادر الثقافي بجميع أنواعها عند المقدسي نلحظ اهتمامه بالتوثيق، وإن كان بدرجات متفاوتة، متى ما واتته الفرصة؛ وذلك راجع لشعوره -على ما يبدو- بأهمية مجاراة الثقافي للمرئي في الدقة والموثوقية.

المبحث الثاني: مجالات الثقافي

تمثل المواد المرئية والمشاهَدة المحتوى الأساسي لكتب الرحلات، وما يخرج عن هذه المواد ينظر له نظرات متنوعة، فكيف كان موقف المقدسي نظريًا وعمليًا؟

في سياق حديث المقدسي عما سبقه من كتب الرحلات أخذ على ابن الفقيه الهمذاني أنه "أدخل في كتابه ما لا يليق به من العلوم، مرة يزهد في الدنيا وتارة يرغب فيها، ودفعة يُبكي وحينًا يُضحك ويُلهي"(المقدسي، 2003، ص 38، 39)، وأخذ على أبي عبدالله الجيهاني أنه "مرة يذكر النجوم والهندسة، وكرّة يورد ما ليس للعوام فيه فائدة، وتارة ينعت أصنام الهند، وطورًا يصف عجائب السند، وحينًا يفصّل الخراج والرد..." (المقدسي، 2003، ص 38)، وهذا يوحي بأن المقدسي سيحترز من هذا (العيب)، أي أنه لن يستطرد في الكتابة بالحديث عن كل ما يراه ويشاهده، فضلًا عن الاستطراد إلى غيره، وسيقتصر على ما يراه أساسيًا كليًا في موضوعه. فهل التزم بهذا المنهج؟

من يقرأ الكتاب يجد أن المؤلف يستطرد أحيانًا ويخرج عن موضوعه إلى موضوع آخر، وإذا أمعنا النظر في هذه المعلومات ألفينا بعضها يمتّ للمكان المقصود بصلة، وبعضها لا يمتّ له بصلة.

أولًا: استطراد يرتبط بالمكان

ما يورده المؤلف من معلومات ثقافية ترتبط بالمكان يمكن أن يصنّف الأهم منها بحسب فنّه إلى ثلاثة أصناف:

معلومات دينية:

عندما يتحدث المؤلف عن مكان ما قد يشدّه ذلك إلى استدعاء معلومات دينية تتعلق بذلك المكان، سواء في مجال التفسير أو الحديث أو الفقه أو غيرها. مثل إيراده -بسند طويل- تفسيرَ ابن عباس -رضي الله عنهما- "في قوله: ﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ قال: كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف، وفي قوله: ﴿ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ قال: خوف الجذام" (المقدسي، 2003، ص 107)، وذلك في سياق حديثه عن إقليم جزيرة العرب وطقسها، وسلامتها من مرض الجذام.

كما أورد بعض المسائل الفقهية، وهو يتحدث عن مكة وما حولها، مثل حكم الصلاة إلى الحِجْر والطواف به، وحكم إقامة صلاة الجمعة في منى، وحكم الإحرام من الميقات وتجاوزه بدون إحرام (المقدسي، 2003، ص 91، 94، 96)، ومنه الحديث عن الصاع في الحجاز منذ عهد عمر -رضي الله عنه-(المقدسي، 2003، ص 112)، وغير ذلك.

أما الأحاديث النبوية التي يوردها بسندها فهي كثيرة، وتتناول كثيرًا من الموضوعات، كما يلحظ في أثناء هذا البحث، مثل الخلاف في ترتيب قبر النبي -صلى الله عليه وسلم- وصاحبيه -رضي الله عنهما-(المقدسي، 2003، ص 99)، ومنه إيراده حديث الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار بسنده (المقدسي، 2003، ص 173)، وغيرها.

معلومات تاريخية:

يستدعي المقدسي بعض الأحداث أو القصص التاريخية المتعلقة بالمكان الذي يتحدث عنه، وهذا يكثر في مقدمة كل إقليم يتحدث عنه، حيث يسرد كثيرًا من الأحداث التاريخية التي شهدها المكان. من ذلك –على سبيل المثال- تعداده لبعض الأحداث التي شهدتها جزيرة العرب في مقدمة حديثه عنها، مثل دعاء إبراهيم عليه السلام، وهدم الكعبة وبنائها في عهد عبدالله بن الزبير -رضي الله عنه- وعهد الحجاج، وتوسعة الحرم المكي في عهد المنصور العباسي، وأمر معاوية –رضي الله عنه- بحمل منبر النبي –صلى الله عليه وسلم- إلى جانب المحراب (المقدسي، 2003، ص 89، 93، 94، 99)، وغيرها من الأحداث.

ومن ذلك قوله عن إقليم أقور: "به استقرّت سفينة نوح على الجوديّ، وبه سكن أهلها، وبنوا مدينة ثمانين، وبه تاب الله على قوم يونس، وأخرج منه العين، ومنه دخل الظلمات ذو القرنين، وبه كانت عجائب جرجيس مع داذيانه، وفيه أنبت الله تعالى ليونس اليقطينة"(المقدسي، 2003، ص 142). ومنه حديثه عن كيفية انتشار المذهب الحنفي في المغرب الإسلامي (المقدسي، 2003، ص 220). وحديثه عن إدريس بن عبدالله الطالبي وكيفية هروبه إلى المغرب الأقصى وتكوين دولته ثم اغتياله (المقدسي، 2003، ص 226، وكذلك حيلة أبي موسى الأشعري –رضي الله عنه- لفتح مدينة قاشان(المقدسي، 2003، ص 326)، وتفصيله عن ملوك بني بويه (المقدسي، 2003، ص 334. وص291، 237، 239، 304، 314، 322، 328)، إلى غير ذلك من الأحداث.

معلومات جغرافية:

وكذلك قد يستطرد المؤلف إلى معلومات جغرافية تتعلق بالمكان، مثل حديثه عن منابع الأنهار التي تحويها دولة الإسلام آنذاك، كنهر الفرات ودجلة والنيل وجيحون وطرسوس ومهران والرس وغيرها (المقدسي، 2003، ص 51-53)، وكذلك تفصيله في وصف البحر المحيط بجزيرة العرب من القلزم في مصر إلى عبادان في العراق، وبيانه لأنواع المياه وكيفية معرفتها، وحدود مناطق المناخ الحار في جزيرة العرب وشمالها (المقدسي، 2003، ص 43، 114، 176).

ثانيًا: استطراد لا يرتبط بالمكان

وكما أن المصنف قد يستطرد فيورد معلومات مرتبطة ببعض الأماكن فإنه –كذلك- قد يستطرد إلى معلومات لا تتعلق بالمكان الذي يتحدث عنه، وأول ما يبدو هذا في المدخل المطوَّل الذي أورد فيه كثيرًا من المعلومات العامة عن البلاد الإسلامية، كما وردت استطرادات أخرى في أثناء الكتاب. وهذه المعلومات تتنوع من حيث موضوعاتها، فمنها الدينية والتاريخية والجغرافية وغيرها. فمن المعلومات الدينية حديثه عن المذاهب والفرق الإسلامية في الفقه أو في الكلام أو في الحديث أو في غيرها، واعتقاداتها، وانقسام الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة (المقدسي، 2003، ص 63، 64)، وكذلك حديثه عن القراءات القرآنية، وعن المتروك من آراء أئمة الفقهاء في بعض المسائل الفقهية (المقدسي، 2003، ص 65، 66)، وغير ذلك.

ومن المعلومات الجغرافية التي أوردها الحديثُ عن كروية الأرض، وجاذبيتها، وخطوطها، ومساحة اليابسة، وتقسيمها إلى أقاليم بأسلوب مفصَّل، مع التركيز على بلاد الإسلام، وسبب ظاهرة المد والجزر (المقدسي، 2003، ص 80-86، 45-46). وهناك معلومات متنوعة يستدعيها السياق مثل حكم تذكير اسم البلد أو تأنيثه لغويًا، وتعدد مفهوم المِصْر عند الفقهاء واللغويين والعامة (المقدسي، 2003، ص 71)، ومنه التعليل المطوّل لتقسيمه مذاهب الناس وأديانهم وسماتهم أربعًا أربعًا وليس سبعًا سبعًا (المقدسي، 2003، ص 67)، ومنه الحديث عن الخدم والمخصيين وطريقة الخصاء (المقدسي، 2003، ص 224، 225)، إلى غير ذلك.

فحين ننظر إلى هذه المجالات الثقافية التي يستدعيها المؤلف نلحظ الحضور البارز للمجال التاريخي والديني أكثر من غيرهما، وهذا التداخل الثقافي بالمرئي انعكس على هوية النص المعرفية لتجعل القارئ يهوّم بين السرد الرحلي الأدبي والطرح الفكري. ولا يندّ عن فهم القارئ إدراك العمق الديني للمؤلف.

المبحث الثالث: موقفه من الثقافي

بما أن المقدسي قد بيّن مصادره في كتابه بوضوح وجعل مصدره الأول والأهم هو المشاهدة والمعاينة، ثم النقل عن الآخرين مسموعًا أو مقروءًا، فالسؤال هنا: ما موقفه مما يشاهده أو ينقله، خاصة في المعلومات غير المسلَّم بها شرعًا أو عقلًا؟ وإذا عرفنا –كما في مقدمة هذا البحث- أنه أكد على عدم قبول المعلومة المرئية أو المنقولة إلا إذا ألْفاها حقًا وحقيقة أو توشك، اسمعه يقول: "وما لم يقرّ في قلبي ولم يقبله عقلي أسندته إلى الذي ذكره، أو قلت زعموا"(المقدسي، 2003، ص 37)، فهل كل ما أورده من الثقافي يطرد عليه هذا القيد، أم تفاوتت مواقفه؟ سيتبين الإشكال بعد قليل حول بعض المعلومات.

أولا: موقفه من بعض ما يراه

تعهد المصنف بأنه سيغربل كل معلومة أو حدث يُنسب إلى مكان قبل أن يدوّنه، فإن وافق العقل والمنطق دوّنه، وإن رأى فيه شكًا أو ريبة، لكنه يستحق التدوين، دوّنه بصيغة تفيد التمريض والشك، يقول: "وما لم يقرّ في قلبي ولم يقبله عقلي أسندته إلى الذي ذكره، أو قلت زعموا" (المقدسي، 2003، ص 37). ولكن فحص المعلومات التي أوردها في هذا المجال يكشف عن اختلاف موقفه مما يشاهدُه، على أحوال هي:

السكوت:

يدوّن المصنف بعض المعلومات والأخبار عن بعض الأماكن بصيغة الخبر المجرد، ويسكت عنه، ولا يخضعه لمنهجه الذي خطه لنفسه، ومن ذلك قوله عن ناحية حضرموت من اليمن: "وموضع إرم ذات العماد ليس لها أثر. من لحج إليها فرسخان في مستوى، فتراها من البعد تشرق فإذا قربتَ لم تر شيئا" (المقدسي، 2003، ص 104)، فهل قرّت هذه المعلومة في

قلبه وقبِلَها عقله حتى اعتقد صحتها فصاغها بأسلوب خبري، ولم ينسبها إلى أحد ولم يقل زعموا؟ مع أن أهل التفسير اختلفوا في (إرم) هل هي اسم بلدة أم أُمة؟ ثم اختلفوا فيها فقيل: هي الإسكندرية، وقيل: دمشق، وقيل: قبيلة من عاد، وقيل: جدّ عاد (الطبري، 2001: 24/361-364). ومثل قوله عن الحِجْر: "ومسجد صالح بالقرب من نشزة مثل الصّفّة قد نقر في صخرة"(المقدسي، 2003، ص 101)، فهل اعتقد أن هذا المكان بالتحديد هو مسجد صالح –عليه السلام- إن كان له مسجد؟ والتساؤل ذاته يظهر حول ما يذكره من مشاهد الأنبياء والصالحين في إقليم آقور والشام وغيرهما، مثل بيوتهم أو مساجدهم أو قبورهم أو مواضع أحداث تخصهم إلى غير ذلك (المقدسي، 2003، ص 142، 152، 155. وص331، 358).

التشكيك:

عندما لا يطمئن المقدسي إلى صحة معلومة ما فإنه يضيف إليها ما يدل على الشك فيها وعدم الجزم بصحتها وذلك بأن يقول: قالوا، أو زعموا، كما أوضح ذلك في منهجه. من ذلك قوله عن جامع وادي القرى في الحجاز: " في محرابه عَظْم قالوا هو الذي قال للنبي -صلى الله عليه وسلم- لا تأكلني فأنا مسموم"(المقدسي، 2003، ص 101)، ومنه قوله: "عند العرج جبل قالوا إن جبريل شقّ فيه للنبي –صلى الله عليه وسلم- وقت هجرته طريقًا إلى المدينة" (المقدسي، 2003، ص 117)، وقوله: "وثمَّ تلال قالوا هي رمال نار نمرود، وبقرب كوثا الطريق شبه منارة لهم فيها كلام" (المقدسي، 2003، ص 128).

ويقول: "على فرسخ من ميافارقين دير توما فيه جسد قائم يزعمون أنه من الحواريين يابس"(المقدسي، 2003، ص152). ويقول: "وثم صنم يزعمون أن الشيطان كان يدخله فيكلمه حتى كسر أنفه وشفتاه" (المقدسي، 2003، ص 204). وقوله: "بنواحي اصطخر تلال زعموا أنها رماد نار إبراهيم عليه السلام" (المقدسي، 2003، ص 369. وص 319، 331، 369، 393). كما يستعمل أسلوب المبني للمجهول؛ للتورع أو للتنصل من الحكم، مثل قوله عن مدينتين من مدن المغرب العربي: "ويُتهمون بطرح لحوم الكلاب في الهراس... ويُرى أحدهم يطبخ القدر ثم يبيع اللحم أو الثريدة"(المقدسي، 2003، ص 226).

الرفض الصريح:

أول ما يلفت الانتباه في هذا الموقف للمقدسي أنه عقد بابًا شكّك فيه بما نُسب إلى بعض الأماكن من موجودات وأحداث، وقال فيه: "اعلم أن في الإسلام مواضع ومشاهد ليست بصحيحة ولا مُجمع عليها، فوجب إفراد هذا الباب لها لِتَبايُن الصحةِ، وننحاز عنها إذا ذكرناها في الأقاليم" (المقدسي، 2003، ص 70)، وضرب أمثلة لذلك منها: قبة بكازرون تزعم المجوس أنها وسط الدنيا، ومشهد خارج ينبع يقال إنه لسان الأرض حين قالت: "أتينا طائعين" (فصّلت: 11). ولكن ما ذكره في هذا الباب قليل مقارنة بما حواه الكتاب من معلومات هي محل نظر.

ومما لم يوافق عليه من المشاهد والأقوال ما قيل عن مغارة عظيمة قريبة من مدينة أيليا، فإنه سمع وقرأ أنها تنفذ إلى قوم موسى، ثم قال: "وما صح لي ذلك، وإنها مقاطع للحجارة"(المقدسي، 2003، ص 184). ومما حكّم المصنف فيه رأيه هَرَما مصر، فبعد أن نقل آراء السابقين حول حقيقتهما قال: "وحولهما أمثالهما عدة صغار، وهذا يدل على أنها مقابر. ألا ترى إلى ملوك الديلم بالري كيف اتخذوا على قبورهم قبابًا عالية، وأحكموها جهدهم، وعلّوها طاقتهم كيلا تندرس، ومَنْ دونهم أصغر منها"(المقدسي، 2003، ص 204)، فهو هنا وإن نقل آراء السابقين فقد رفض ما لا يراه صحيحًا، واختار ما يرجحه وعلل له، وهذا المنهج نادرًا ما يعمل به.

ثانيًا: موقفه من بعض ما ينقله

النقل عن الآخرين، مسموعًا أو مقروءًا، من أهم مصادر المقدسي، كما سبق بيانه في المبحث الأول، فقد أوضح الشروط التي سيأخذ بها في انتخاب محتواه المسموع، وهي:

أولًا: كون المنقول عنهم فطناء ثقاتًا.

ثانيًا: مراعاة آراء الناقلين، فما يتفقون عليه يُقبل وما يختلفون فيه يُهمل.

ثالثًا: فحص المتن (المحتوى المتفق عليه)، فإن رآه غير معقول لكنه يستحق التدوين دوّنه بأسلوب يشي بالشك وعدم القناعة.

أما المحتوى المكتوب فلم يبيّن المقدسي معياره للانتقاء والاختيار منه(المقدسي، 2003، ص 37) .ومع وضوح هذا المنهج نظريًا فإن المصنف لم يلتزم به التزامًا دقيقًا في الجانب العملي، حيث نرى له مواقف متفاوتة فيما ينقله، منها:

- **القبول:**

ونقصد به أن المصنف قد يورد معلومة يدرك المثقفون أنها من غير المسلَّم به، وأن معرفة الحق فيها يحتاج إلى تحقيق وتمحيص، ومع ذلك يتقبلها ويؤمن بها صراحة، أو يوردها بأسلوب يفيد القبول. والأمثلة والشواهد على ذلك كثيرة، منها ما سمعه من بعض أهل طبريّة من أن في المدينة عين ماء حارة، وحول العين بيوت، وكل بيت يشفي من علة، إلى وقت أرسطاطاليس، الذي سأل ملك ذلك الزمان هدم البيوت لئلا يُستغنى عن الأطباء، ثم قال: "وقد صحت لي هذه الحكاية لأن كل من دخله من أصحاب العلل وجب أن يخوض الماء كله ليوافق موضع شفائه"(المقدسي، 2003، ص 184).

ومن أعجب وأغرب ما نقله وأيده حديث عن النبي –صلى الله عليه وسلم- وأثَرَين عن علي بن أبي طالب وعن عمر بن الخطاب –رضي الله عنهما- وحكايات أخرى كلها في ذم الخوز والطعن فيهم واسترذالهم(المقدسي، 2003، ص 336)، وهو بهذا يبتعد عن معياره الذي وضعه بألا يقبل إلا ما يقر بقلبه ويقبله عقله، أو ينسب القول إلى قائله.

ومنه –أيضًا- ما رواه عن عبد الله بن عمرو –رضي الله عنه- بسند طويل أنه قال: "إن الله لمّا خلق بحر الشام أوحى إليه أني خلقتك وأني حامل فيك عبادًا لي يبتغون من فضلي يسبّحونني ويقدّسونني ويكبّرونني ويهلّلونني، فكيف أنت صانع بهم؟ قال: ربّ إذًا أغرقهم، قال: اذهب فقد لعنتك، وسأقلّ حليتك وصيدك. وأوحى إلى بحر العراق مثل ذلك، فقال: ربّ إذًا أحملهم على ظهري، فإذا سبّحوك سبّحتك معهم، وإذا قدّسوك قدّستك معهم، وإذا كبّروك كبّرتك معهم، قال: اذهب فقد باركت فيك، سأكثر حليتك وصيدك، وهذا دليل على أن ليس إلّا بحران"(المقدسي، 2003، ص 47)، فاستشهاده بهذا الأثر على أنه لا يوجد في الدنيا إلا بحران يدل على قبوله بهذا الأثر، مع وضوح الشك والريبة فيه. وقال عن مدينة أيلة: "وهي التي قال الله تعالى فيها: (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر)" (المقدسي، 2003، ص 157). وقال: "واعلم أن أكثر مدن الأعاجم موضوعة على اسم من أنشأها وبناها، نذكر ذلك في موضوعه إن شاء الله تعالى"(المقدسي، 2003، ص 239)، ثم صار يذكر عند حديثه عن بعض المدن اسم من أنشاها وأغلبهم من القدماء جدًا، مثل قوله: "وأما أرمينية فإنها كورة جليلة رسمها أرميني بن كنظر بن يافث بن نوح"(المقدسي، 2003، ص 314، وص 162، 244، 261، 338، 340، 351).

السكوت:

عندما ينقل المقدسي أي نقل ويسكت عنه بلا إشارة تشي بالشك أو التردد، فهل يعني ذلك قبول المعلومة لدى المصنف؟ لولا المنهج الذي صرّح به في التنبيه على غير المقبول عنده –إلا ما أجمعت عليه الرواة- لقلت إن السكوت لا يعني بالضرورة القبول. والغريب أنه قد ينقل بعض الأخبار التي تظهر الحاجة فيها إلى التمحيص والتدقيق؛ لما يطفو عليها من الشك والغرابة ويسكت عنها.

ومن أمثلة ذلك الأثر الذي رواه بسنده عن الليث بن سعد حول منبع نهر النيل، يقارب الصفحة في الطول وهو أقرب إلى الخرافة (المقدسي، 2003، ص 51)، فهل تقبّل عقله هذه القصة؟ أم هل أجمعت مصادره عليها؟ وهل من الاختصار – الذي أعلن عنه- إيرادها وهي بهذا الطول، وبهذه الغرابة؟

وكذلك قوله: "ووجدت في كتاب بالبصرة أربعة أنهار من الجنّة في الدنيا: النيل وجيحون والفرات والرسّ، وأربعة من أنهار النار: الزّبدانيّ والكرّ وسنجة والسم"(المقدسي، 2003، ص 53). ومثله ما رواه بسنده، في سياق حديثه عن فضائل إقليم أقور، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "أربعة أَجْبُل من جبال الجنّة، وأربعة أنهار من أنهار الجنّة، وأربعة ملاحم من ملاحم الجنّة، قيل ما الأَجْبُل؟ قال أُحُد يحبّنا ونحبّه، ومجنّة جبل من جبال الجنّة، والطور جبل من جبال الجنة، والأنهار: النيل والفرات وسيحان وجيحان، والملاحم بدر وأحُد والخندق وحنين"(المقدسي، 2003، ص 143). فهل يقبل العقل والشرع نسبة أي تضاريس طبيعية إلى الجنة أو النار بغير نص شرعي صريح صحيح؟ وهل أجمعت مصادره عليها -كما اشترط- حتى نحيل التبعة عليهم؟

كما تحدّث عن عيون ماء في إقليم المغرب قائلا: "تخرج أوقات الصلاة ثم تغور، فإن قصدها رجل كان قد قتل نفسًا بغير حق لم يخرج له شيء"(المقدسي، 2003، ص 224). وغير ذلك كثير (المقدسي، 2003، ص 117، 127، 145، 171، 204، 287، 289، 326، 348).

التشكيك:

لم يكن المقدسي سلبيًا في التعامل مع كل مصادره، بل ظهرت له آراء ووجهات نظر في بعض المعلومات التي يرويها، ومن ذلك التشكيك في بعض ما ينقله، وإظهار عدم الاطمئنان إلى صحته، ويكون ذلك –غالبًا- باستعمال لفظ (قال) أو (زعم) أو أحد مشتقاتهما، فيقول: قالوا أو قيل أو يقال أو يزعمون أو غيرها، مما يوحي بعدم ارتياحه للخبر. ومع أننا نستحسن هذا منه إلا أنه يظل دون منهجه الذي أعلن عنه، وصحيح أنه أوردها بأسلوب يشي بالشك فيها، ولكن هل أجمع رواتها عليها؟ كما أن نسبة الغرابة والشك تتفاوت من خبر لآخر، فأخبار تتدنى فيها نسبة الشك والغرابة، وأخبار تتوغل فيها حتى تكاد تسقطها.

فمن الأول قوله عن جامع دمشق: "ويقال إن الوليد جمع لبنائه حذّاق فارس والهند والمغرب والروم، وأنفق عليه خراج الشام سبع سنين، مع ثماني عشرة سفينة ذهب وفضّة أقلعت من قبرص، سوى ما أهدى إليه ملك الروم من الآلات والفسافساء" (المقدسي، 2003، ص161).

ومن الثاني قوله عن عدن: "ويقال إنها كانت في القديم حبس شداد بن عاد" (المقدسي، 2003، ص 102)، وقوله عن عين ماء في ربض المدينة: "ويزعمون أن ماء زمزم يزور ماء هذه العين ليلة عرفة" (المقدسي، 2003، ص 171)، وقوله عن البحر الصيني (بحر العرب): "وفيه من الجزائر ما لا يحصى كثرة، فيها ملك من العرب. يقال إن بها ألفًا وسبعمائة جزيرة تملكهنّ امرأة، وزعم من دخل مملكتها أنها تجلس لرعيّتها على سرير عريانة وعليها تاج وعلى رأسها أربعة آلاف وصيفة قيامًا عراة" (المقدسي، 2003، ص46)، ويقول: "أليس به مسجد يونس بتّل توبة، يقولون سبع زورات له يعدلن حجة"(المقدسي، 2003، ص142)، وقال: "ويقال الفرات مبارك ودجلة ملعونة" (المقدسي، 2003، ص150)، وقال عن عين في القدس: "ويزعمون أن ماء زمزم يزور ماء هذه العين ليلة عرفة" (المقدسي، 2003، ص171).

ومن غريب ما نقله وسكت عنه قوله عن الطلسمات: "ولا تكون الطلسمات إلا بمصر والشام، ويقال هي من عمل الأنبياء" (المقدسي، 2003، ص205)، فهل تكفي كلمة (يقال) للتعليق على أن الطلسمات من عمل الأنبياء؟ مع أنه يصرح في

بعض المواضع باستنكار بعض الأقوال ويردها، وهي أقل شأنًا من هذا القول، كما سيأتي في الحالة التالية. ومثله قوله عن مسجد في شهرستان: "يروون أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صلى فيه"(المقدسي، 2003، ص358. وص171، 173، 200، 205)، فهل تكفي (يروون) لاستنكار هذا القول؟!

الرفض الصريح:

ترتفع حاسة النقد لدى المقدسي في بعض المواضع تجاه بعض ما ينقله من المسموع أو المكتوب، فلا يكتفي بالنقل المجرد ولا بالتشكيك، بل يعلن مخالفته لذلك القول، أو رفضه لذلك الرأي. ولعل أوضح إجراء لذلك هو انتقاد مناهج من سبقه من كتّاب الرحلات والبلدان، كالجيهاني والبلخي والهمذاني والجاحظ وابن خرداذبه، ومخالفته لمناهجهم (المقدسي، 2003، ص38، 39).

ومن المسائل المفردة التي خالف من سبقه فيها:

مخالفته لهم في رسم خريطة البحر، وكون البحار تصب في المحيط لا العكس، وتقسيم المياه إلى قسمين (بحرين) فقط، وعدم إعجابه ببغداد، ومخالفته أبا زيد البلخي في عرض مملكة الإسلام (المقدسي، 2003، ص43، 48، 48، 63، 85)، وقال عن طعام يوزع في قرية حبري الشامية: "ويظن أكثر الناس أنه من قِرى إبراهيم، وإنما هو وقف تميم الداري وغيره" (المقدسي، 2003، ص171)، وقال في تيه بني إسرائيل: "فيه خلاف والصحيح أنه بين مصر والشام يكون نحو أربعين فرسخا..." (المقدسي، 2003، ص204).

وقال عن مسلتي مصر: "سمعت فيهما أشياء لا يقبلها العقل"(المقدسي، 2003، ص204). كما خطّأ من جعل بخارى من الصغد، مع توضيح رأيه (المقدسي، 2003، ص242).

مما سبق نلحظ تفاوت معايير المؤلف العملية في تعامله مع الثقافي والمرئي على حد سواء، سواء في الانتخاب أو التقييم، رغم دقة معاييره النظرية، فنجده فيهما يتراوح بين القبول المطلق لما لا يُسلّم به، متدرجًا إلى الرفض الصريح لما يستنكره. فهل خفّض سقف المصداقية الذي أعلن عنه، أم وجد أنه يكتب أدبًا، أم رأى أن القارئ يجب أن يحمل بعض العبء؟

النتائج:

بعد هذه الجولة في كتاب (رحلة المقدسي) تبين قوة أثر الثقافة العامة للمؤلف على النص الرحلي، وتأثيرها على موضوعه الأساس وهو المشاهَدة والرؤية؛ مما أدى إلى تداخل الثقافي بالمرئي. وتوصل البحث إلى أن المؤلف كان يعي أثر تداخل الثقافي بالمرئي على محتوى النص؛ ولذلك وضّح منهجه في التعامل مع هذه الحالة، وهو أنه لن يدوّن إلا ما شاهده، وأدركه غاية الإدراك.

ومع ذلك تسللت ثقافته العامة إلى النص عبر مصدرين من مصادر الثقافة:

الأول المصدر المسموع، ومنه نَقَل محتوى تَلقّاه بالسماع من مصادر كالإجابات الشفوية، وما يسمعه من أخبار، وما يمر به من حوارات، وما يرويه من أحاديث السنة النبوية، وغير ذلك.

والثاني المصدر المكتوب، وقد أبان أنه نقل من كتب اطلع عليها، ونجده أحيانًا يذكر اسم الكتاب ومؤلفه أو أحدهما، كما وُجد عنده نقلٌ بلا عزو لمصدر.

ونجد تداخل الثقافي بالمرئي –أيضًا- عند المؤلف باستطراده إلى معلومات متنوعة دينية وتاريخية وجغرافية تخرج به عن المشاهدات، وتشير إلى الأثر القوي للثقافة الدينية عليه، خاصة الفقهية والعَقَدية.

كما توصّل البحث إلى أن تعامل المؤلف مع المعلومات الخارجة عن المشاهدة يخالف منهجه النظري أحيانًا، فإذا كان قد اختار ألا ينقل إلا ما اتفق عليه الثقات، وقَرّ في قلبه، وقبِلَه عقله، فإن القارئ يجد معلومات يُرى الإشكال فيها جليًا، ولا يُتصور اتفاق الثقات عليها لا عقلًا ولا شرعًا، ومع ذلك تقبّل المؤلف بعضها، وسكت عن بعضٍ، وقد يشكك في بعضٍ، وهناك ما رفضه وهو قليل.

وفي الأخير فإن البحث يدعو إلى إجراء مزيد من الدراسات حول موضوع أدب الرحلات، وتجلية أثر تداخل الثقافي بالمرئي والمشاهَد، وأثر ذلك على قيمة المعلومة.

المراجع:

أبوليل، ر. ع. (2011). *ياقوت الحموي وكتابه معجم البلدان، الأوضاع الاقتصادية: دراسة تاريخية* [رسالة ماجستير غير منشورة]، جامعة النجاح، فلسطين.

ابن بطوطة. (1407). *تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار* (الشيخ محمد العريان، تحقيق؛ ط.1) دار إحياء العلوم.

بلعربي، م. ومنقور، م. ع. (2023). الرحلة جنس أدبي، *مجلة الآداب واللغات*، *10* (2)، 55-69.

حليفي، ش. (2002). *الرحلة في الأدب العربي* (ط.1). الهيئة العامة لقصور الثقافة.

ابن خرداذبه، أ. (1889). *المسالك والممالك*، مطبعة بريل.

الشامي، ص. (1983). الرحلة العربية في المحيط الهندي ودورها في خدمة المعرفة الجغرافية، *مجلة عالم الفكر*، *13* (4)، 13-40.

الطبري، م.(2001). *تفسير الطبري* (عبدالله بن عبدالمحسن التركي، تحقيق؛ ط.1). دار هجر للطباعة والنشر.

العبدري، أ. ع. ب. م. (1968). *رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية* (محمد الفاسي، تحقيق). جامعة محمد الخامس.

غريّب، ج. (1991). *أدب الرحلة: تاريخه وأعلامه* (ط.1). دار الثقافة.

فهيم، ح. م. (1989). *أدب الرحلات*، عالم المعرفة.

المدني، ا. ع. (2006). *رحلة ابن معصوم المدني* (شاكر هادي شكر، تحقيق؛ ط.1). الدار العربية للموسوعات.

معلوف، ح. (1943). *حديث السندباد القديم*، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

المقدسي، م. ب. أ. (2003). *رحلة المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم* (ط.1). دار السويدي للنشر والتوزيع.

البشاري. (1906). *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم* (ط.2). مطبعة بريل.

References

Abolil, R. A. (2011). *Yāqūt al-Ḥamawī and his book "Muʿjam al-buldān," the economic conditions: A historical study* [Unpublished master's thesis]. An-Najah University, Palestine.

Ibn Baṭṭūṭa. (1987). *Tuḥfat al-nuẓẓār fī ghrāʾib al-amṣār wa-ʿajāʾib al-asfār* (Muḥammad al-ʿAryān, Ed.; 1st ed.). Dār Iḥyāʾ al-ʿUlūm.

Belaribi, M., & Manqūr, M. A. (2023). The Journey is a literary genre. *Journal of Literature and Languages, 10*(2), 55–69.

Ḥalīfī, Sh. (2002). *Al-riḥla fī al-adab al-ʿArabī* (1st ed.). The General Authority of Cultural Palaces.

Ibn Khurradādhbih, A. (1889). *Al-masālik wa-al-mamālik*. Brill.

Al-Shāmī, Ṣ. (1983). The Arab travelogue in the Indian Ocean and its role in serving geographical knowledge. *ʿĀlam al-Fikr, 13*(4), 13–40.

Al-Ṭabarī, M. (2001). *Tafsīr al-Ṭabarī* (ʿAbd Allāh ibn ʿAbd al-Muḥsin al-Turkī, Ed.; 1st ed.). Dār Hajr.

Al-ʿAbdarī, A. ʿA. b. M. (1968). *Riḥlat al-ʿAbdarī al-musammā al-riḥla al-Maghribiyya* (Muḥammad al-Fāsī, Ed.). Muḥammad V University.

Gharayyib, J. (1991). *Adab al-riḥla: Tārīkhuhu wa-aʿlāmuhu* (1st ed.). Dār al-Thaqāfa.

Fahīm, H. M. (1989). *Adab al-riḥlāt*. ʿĀlam al-Maʿrifa.

Al-Madanī, A. ʿA. (2006). *Riḥlat Ibn Maʿṣūm al-Madanī* (Shākir Hādī Shakar, Ed.; 1st ed.). Al-Dār al-ʿArabiyya lil-Mawsūʿāt.

Maʿlūf, H. (1943). *Ḥadīth al-Sindibād al-qadīm*. The Committee for Authorship, Translation, and Publication Press.

Al-Maqdisī, M. b. A. (2003). *Riḥlat al-Maqdisī: Aḥsan al-taqāsīm fī maʿrifat al-aqālīm* (1st ed.). Dār al-Suwaydī li-al-Nashr wa-al-Tawzīʿ.

Al-Bashshārī. (1906). *Aḥsan al-taqāsīm fī maʿrifat al-aqālīm* (2nd ed.). Brill.